8

العصر المتهاوي وفديات الملوك

يُعتبر القرن الرابع عشر قرناً فريداً في التاريخ، فقد حفل بكوارث قاسية من مجاعات وأَوبئة وفوضى اجتماعية وحروب. كما كان نقيضاً هائلاً للتطورات والمنجزات التي ميَّزت القرنين الثاني عشر والثالث عشر في أوروبا. وقد وصفت باربرا توتشمان، التي ألَّفت كتاباً كاملاً عن أهوال القرن الرابع عشر، وصفته بقولها: «كان عصراً عنيفاً ومعذَّباً ومرتبكاً ومتألماً ومتهاوياً، وكما قال عنه الكثيرون، كان زمن انتصار الشيطان»[1]. ومما لا شك فيه بأن القرن العشرين قد شهد أهوالاً بشعة، ولكن كانت هناك على الأقل، فترات من السلم بين القوى الكبرى في أوروبا، في الفترة ما بين 1900 ـ 1914، والفترة ما بين 1918 ـ 1939، وبعد سنة 1945. أما القرن الرابع عشر فلم يعرف فترات راحة من هذا النوع.

كيف لبريق الذَّهب أن يشع من خلال ظلمة عصر كهذه؟... سنكتشف معاً أن الذَّهب، كان أحياناً، يتألَّق ببريق ساطع خلال القرن الرابع عشر، بل إِنَّه أنقذ أرواحاً كانت ستهلك لولاه. كما لم يشهد ذلك العصر تطوراً في الابتكارات الخاصة بسكّ النَّقد، أَو في تلك الخاصة بأية وسائل ماليَّة أخرى، تمكن مقارنته بالتطور الحاصل في السنوات المائتين التي سبقته، لكن الذَّهب

لم يتلاشى خلف الظلال. كما أنَّه لدى تراجع أهوال القرن الرابع عشر في نهاية الأمر أمام التطور الهام الحاصل في مستويات المعيشة والنمو الاقتصادي في القرن الخامس عشر، بدت كميَّة الذَّهب المتوفرة وكأنَّها دون مستوى الطلب المتزايد، الأمر الذي أطلق تحركات كبيرة من عقالها سعياً وراء مصادر ذهب جديدة في أجزاء أخرى من العالم.

كان صيف سنة 1314 في أوروبا بارداً ورطباً بشكل غير مألوف. وكانت النتيجة أن تعفَّنت الغلال وتأخّرت المحاصيل، وقامت السلطات التي تملَّكها القلق بفرض الرقابة على أسعار منتجات المزارع وحطب الوقود. تلك الكوارث كانت اعتياديَّة، سبق لها وأن حدثت كثيراً قبل ذلك.

إنَّ الطقس الرديء في سنة 1314 لم يكن سوى مقدمة لسلسلة من الكوارث، فشحّ الغلال نادراً ما كان يحدث في سنتين متتاليتين، لكن طقس سنة 1315 كان أسوأ من سابقه. فقد أدَّت الأمطار الغزيرة المتواصلة إلى حدوث فيضانات حطَّمت السدود في طريقها كما تسبَّبت الأنهار الفائضة بتخريب القرى، وضربت العواصف العنيفة السواحل. شملت آثار المأساة قارة أوروبا من إسكوتلندا إلى إيطاليا ومن جبال البيرينيه إلى موطن السلاف، كما ارتفعت أسعار المواد الغذائية بمقدار خمسة أضعاف وانتشرت المجاعات في كل مكان. ولم تكن تلك نهاية الأَحداث، فقد عاد الطقس سنة 1316 ليتسبَّب في المزيد من الدمار، مما أدَّى إلى حدوث أسوأ مجاعة في تاريخ أوروبا. أكل الناس القطط والحشرات وفضلات الحيوانات، ولما لم يجدوا طعاماً أفضل من ذلك، نبشوا القبور وأخرجوا الجثث منها. انتشرت الأَوبئة والجرائم العنيفة انتشاراً واسعاً. كما سادت موجة دموية عنيفة من تعذيب الذات، وشرع الناس بإلقاء

اللائمة على من تم اختيارهم ليكونوا كبش الفداء ـ كاليهود والمجذومين والنبلاء ـ فتم قتلهم دون تردد(*).

لم تكن المجاعة الكبرى، كما أصبحت تُعرف فيما بعد، سوى مقدمة لتلك القصة المروعة. ففي سنة 1347، كان الجنويون يدافعون عن مستعمرتهم كريميان في كافا (وتُعرف حالياً باسم فيودوسيا) المحاصَرة من قِبل جيش التتار الذين قدموا من أقاصي الشرق عبر أراضي روسيا الشاسعة. لم يكن سير الحصار لمصلحة التتار الذين تفتق ذهنهم عن فكرة استخدام قذائف فريدة من نوعها لضربها بالمنجنيق من فوق أسوار كافا لتسقط في مركز المدينة: وهي جثث جنودهم الذين قضوا نتيجة وباء مرعب. غادر الجنويون الذين تملكهم الهلع ـ والمرض فيما بعد ـ كافا على متن سفنهم الشراعية مبحرين عبر البحر الأسود وبحر إيجة باتجاه إيطاليا. وعندما وصلت إحدى السفن الجنوية إلى باليرمو في جزيرة صقلية، كانت البراغيث والجرذان والأشخاص المحتضرون على متنها هم طليعة ما أصبح يُعرف بالموت الأسود(2).

وخلال السنتين التاليتين انتشر الوباء المرعب انتشار النار في الهشيم في كافة أرجاء أوروبا. إن تقديرات عدد السكان غير دقيقة ولا يُعوَّل عليها، ولكنه من المرجح بأن الموت الأسود قد أودى بحياة ثلث السكان تقريباً في المنطقة الممتدة ما بين الهند وآيسلندا، أي عشرين مليون نسمة على الأقل. ولم يعد

(*) وحتى ذلك لم يشكِّل نهاية الطقس الردي، فقد تجمد بحر البلطيق سنة 1316، وفي سنة 1333 تعرّضت فلورنسا لأسوأ فيضان في تاريخها، كما أن العواصف العنيفة في بحر الشمال ضربت الشواطىء أربع مرّات خلال الفترة ما بين 1316 ـ 1404، وذكر رجل دين نرويجي في غرينلاند سنة 1350 أن «تكسّر أنهار الجليد المتقدمة جعل من الإبحار في المسارات البحرية القديمة أمراً مستحيلا». (انظر دي، 1978، ص 187).

عدد سكان أوروبا إلى المستويات التي كانوا عليها سنة 1300، حتى منتصف القرن السادس عشر[3].

لقد كان الرجال، والنساء بنسبة أكبر، يموتون بسرعة بحيث لم يكن هناك وقت أو رغبة في إجراء الطقوس الجنائزيَّة، كما أن الدفن اللائق لم يكن خياراً متاحاً. وفي بعض المدن الكبرى، تجاوز معدل الوفيات الخمسين بالمائة وكان يصل إلى الذروة في المآوي المكتظة داخل الأديرة. لم يكن الوباء ليقيم أي اعتباراً للمكانة: فقد أزهق أرواح ملك قشتالة، وملكة أراغون وابنتها، وابن إمبراطور بيزنطة، وملكة فرنسا وابنتها، وملكة نافار، وزوجة الابن الأكبر لملك فرنسا، ولورا محبوبة بترارك، ورسَّامَي مدينة سينيا أمبروغيو وبيترو لورينزيتي، وأندريا بيزانو من فلورنسا، والمؤرخ العظيم جيوفاني فيلاني (الذي لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يقول: «في وسط الوباء جاءت النهاية»)، والابنة الثانية لملك إنكلترا إدوار الثالث، ورئيس أساقفة كانتربري، والأسقف الذي عيّن خلفاً له، والأسقف الذي عُيِّن خلفاً لمن خلفه[4]. ويبدو أن كل تلك الكوارث لم تكن كافية، فقد حدث سنة 1348 ـ حينما كان الموت الأسود يستجمع قواه للانقضاض ـ أن ضربت هزَّة أرضية فاجعة أثارت الخراب والدمار من مدينة نابولي وحتى مدينة البندقية، لحقتها هزَّات تالية هدمت الأبنيَّة وقتلت الأشخاص. وقد وصلت آثارها حتى ألمانيا واليونان.

لم تكن الطبيعة هي القوة الوحيدة التي سبَّبت العنف والموت في القرن الرابع عشر، فقد غدت التمزقات السياسيَّة القاسية داءاً مستعصياً.

في سنة 1303، تمّ أسر البابا على يد حشد من الرعاع ليموت بعد ذلك بوقت قصير في ظروف غامضة، ويشير أحد المؤرخين إلى موته «بسبب شعوره بالإذلال»[5] ثم قُتل البابا الذي خلفه. أما البابا الذي جاء بعد ذلك، وهو رجل فرنسي اسمه كليمانت الخامس، فقد لزم جانب الحذر ونقل مقر البابويَّة إلى مركز منعزل في موطنه في أفينيون سنة 1305، حيث عاش البابوات حياة ترف

وراحة للسنوات الثلاث والسبعين التي تلت. وقد اشتكى بترارك من أنَّه حتَّى الجياد البابوية كانت «تُكْسى بالأردية الذَّهبية، وتتغذَّى على الذَّهب، كما كانت على وشك أن تنتعل الذَّهب لو لم يضع الله حداً لاستمرار ذلك البذخ الوضيع»[6]. من أين جاء كل ذلك الذَّهب؟... لقد أتى نتيجة تجميع التركات التي خلفها الأغنياء ممن قضوا نتيجة الموت الأَسود. وكان ذلك هو الوقت الذي قام فيه ملك فرنسا فيليب الرابع بمنع تصدير الذَّهب إِلى خارج فرنسا بأي شكل. ويلمِّح أحد الكتَّاب إِلى أن هذا القرار، وليس الخوف من العنف الجسدي، كان الدافع الحقيقي وراء انتقال البابا إِلى أفينيون، وحجَّة الكاتب في ذلك أن البابوية كانت ستواجه الإِفلاس لو أنَّها ظلَّت في روما، وأنَّها قد انتقلت إِلى فرنسا لتحافظ على عائداتها الوفيرة الآتية من مصادر فرنسية[7].

وفي سنة 1327، قُتل ملك بريطانيا إِدوارد الثاني، الذي كان يجاهر بشذوذه الجنسي، بإِدخال قضيب محمى في مؤخرته. وفي سنة 1316، تمّ إِقصاء الملك لويس العاشر ملك فرنسا، المعروف باسم لويس المشاكس، بعد مرور سنتين فقط على اعتلائه العرش. وفي سنة 1332، تفرّق شمل الدانماركيين ذوي المزاج الكئيب ليقعوا في أحضان الفوضى. وفي الإِمبراطوريَّة الرومانيَّة المقدسة، شنّ غيلفز الحرب على غيبيلينز. وفي سنة 1338، اندلعت حرب المائة سنة بين بريطانيا وفرنسا، لتضيف إِلى أعمال التشويه المنتشرة على الصعيد الشخصي، المزيد من أعمال القتل المنظَّم من قِبل الحكومات. وفي سنة 1358، قام الجاكيريون بثورة فلاحية عنيفة في فرنسا احتجاجاً على ضرائب الحرب، وهو عبء دفْع فديات ضخمة لتحرير أسرى العائلة المالكة، وارتُكبت أعمال السَّلب من قِبل المرتزقة الجوَّالين ممن كانوا قد اشتركوا في الحرب. وفي سنة 1379، أي بعد سنة من حدوث العصيان المسلَّح في فلورنسا، قام النسَّاجون والتجّار في غِنْتْ بتمرّد وصلوا فيه إِلى حد محاولة تحويل نهر ليس مما دفع المؤرِّخ المعاصر لهم فرويسارت للتساؤل: «هل بوسع من يقرأ ذلك أَو

يسمعه إلاَّ القول بأن ما يجري هو عمل من أعمال الشيطان؟ . . .»[8] وفي سنة 1381، وبعد سلسلة جديدة من ضرائب الرؤوس، قام الإنكليز بثورتهم الفلاحية العنيفة الخاصة بهم بقيادة وات تيلر. وبعد سبع عشرة سنة، قام هنري بولينغبروك بإقصاء ابن عمه الملك ريتشارد الثاني عن العرش.

إنَّ أقل ما توصف به النتائج الاقتصادية لكل حالات الموت والتمزّق السياسي المذكورة هو الغرابة، وبخاصة مذبحة الموت الأسود. ففي الوقت الذي كانت تختفي فيه أكوام الأجساد البشريَّة، ظلَّت ممتلكات الأشخاص المادية وثرواتهم النَّقديَّة موجودة. لقد تركت هذه العملية المروعة معظم الأوروبيين في مستوى من الثراء أعلى بكثير مما كانوا عليه قبل وقوع المأساة. وبعبارة أخرى، لدى تناقص عدد الفقراء ازداد ثراء الباقين. وسرعان ما أخذ هؤلاء يتصرَّفون على هذا الأساس.

واستناداً لأحد المؤرخين، ازداد عدد مواطني ألبي في جنوب فرنسا، ممن يمتلكون ثروات تزيد على مائة ليڤرة Livre، من 11 بالمائة ليصبح 20 بالمائة من عدد السكان وذلك خلال الفترة 1343 ـ 1357، بينما انخفض عدد الذين يملكون أقل من 10 ليڤرات من 31 بالمائة ليصبح 18 بالمائة[9]. وقد توفي العديدون دون أن تتاح لهم فرصة كتابة وصية، تاركين ثروات لا تخص أحداً. وأدَّى ذلك إلى ازدياد الطلب على المحامين لتسوية النزاعات المتعلِّقة بالميراث والتركات، كما أتاح أيضاً فرص القيام بمغامرات للاستيلاء على الممتلكات التي لم يطالب بها أحد. وإضافة لكل ذلك، انخفض عدد الأيدي العاملة انخفاضاً كبيراً، وأدَّت ندرة العمَّال، إضافة لوفرة المال، إلى زيادة حادة في الأجور وفي مداخيل العمَّال.

وبخلاف ما يمكن لنا أن نتوقعه ضمن ظروف كهذه، أي قيام العديد من

العمَّال بهجر المزارع للاستمتاع بمغريات المدينة، ظلَّت أَسعار المواد الغذائية ثابتة بشكل ملحوظ، فالخسارة في الأرواح كانت كبيرة بحيث أن تأثيرها على طلب المواد الغذائية كان أكبر من مقدار تناقص المواد الغذائية المتوفِّرة والناتج عن انخفاض عدد العاملين في ميدان الزراعة[10]. وعندما أصبحت ضروريات الحياة لا تحتل سوى جزء بسيط من الإِنفاق الإِجمالي، بدأ استهلاك اللحم والزبدة والسمك والخل والتوابل الغريبة يزداد حتى بين أفراد الطبقة الدنيا[11].

وضمن بيئة مضطربة وقلقة كهذه، تراجع دافع الادخار ليحتل مكاناً متواضعاً بينما أصبح لدافع الإِنفاق إِغراء لا يقاوم. وفي سنة 1375، نرى مؤرخاً من فلورنسا يشعر بالسخط «لرؤية أفراد الطبقة الوضيعة وهم يرفضون القيام بمهامهم السابقة، ويرتدون ملابس لا تليق بمستواهم ويصرّون على تناول أنفس اللذائذ على موائدهم»[12]. وفي بريطانيا، جاء في عريضة مقدّمة من مجلس العموم سنة 1362، أن السَّبب وراء ارتفاع الأَسعار هم «العمَّال الذين يتَّخذون سيماء الحرفيين، والحرفيون الذين يتَّخذون سيماء وُصفاء السادة، والوصفاء الذين يتَّخذون سيماء مرافقي كبار الشخصيات، والمرافقون الذين يتَّخذون سيماء الفرسان»[13]. وفي قصيدته المسماة بييرز بلومان Piers Plowman، يهاجم ويليام لانغلاند العامل الذي «يرفض أن يتحمَّل عبء الفقر بصبر، ويقوم عوضاً عن ذلك بإِلقاء اللوم على الله، ويدمدم متذمِّراً ضد المنطق ويلعن الملك ومجلسه لوضعهم قوانين [الحدود القانونيَّة القصوى للأجور] تهدف إِلى إِزعاج العمَّال»[14].

ولم يشكِّل رجال الدين استثناء في هذا المجال. ففي سنة 1351، سأل البابا كليمانت السادس أساقفته: «بماذا يمكنكم أن تعظوا الناس؟ . . . حول الفقر، أنتم تشتهون كل شيء، إِنَّ كل مداخيل العالم لا تكفيكم. حول العفة، أعتقد أنني سألتزم الصمت هنا، لأن الله يعرف ما يفعله كل رجل ويعرف أن العديد منكم لا يقصر في إِرضاء شهوته»[15].

وفي الوقت الذي ظلَّت فيه كلفة المنتجات الزراعية المحليَّة العادية ثابتة

نسبيّاً، تزايد الطلب على المآكل الغريبة، مما كان له تأثيرات متوقّعة على الأَسعار. فاستناداً لأحد المصادر، ارتفع مؤشر أَسعار البضائع الأجنبية مثل سمك الرنجة والفلفل والزيت والسكر واللوز والزعفران من 100 (خلال الفترة ما بين سنتي 1261 ـ 1350) إِلى 162 خلال الفترة ما بين 1351 ـ 1400. ويقدر نفس المصدر أن إِنفاق الفرد على المشروبات قد تضاعف تقريباً خلال الفترة نفسها[16].

إِنَّ النهم المتعاظم للنفائس المستوردة كالأطعمة الفاخرة وتزايد الميل العام للبهرجة في الثياب، إِضافة للعبء الثقيل المتمثِّل في الإِنفاق العسكري، كل ذلك أدَّى إِلى ارتفاع موجة الطلب على كل من الذَّهب والفضة. لكن المقادير المتوفرة من هذين المعدنين الثمينين لم تستطع تأمين المطالب المتزايدة. وأدَّى نقص المعدنين إِلى جعل دُور السَّكّ تتوقف عن العمل لفترات طويلة. ففي الفترة ما بين سنتي 1373 ـ 1411، كان معدل إِنتاج القطع الذَّهبية في إِنكلترا 9500 باوند إِسترليني فقط في السنة، أي عشر الإِنتاج قبل كارثة الموت الأَسود[17]. كما توقف الإِنتاج في مصادر التّعدين لأن الأجور التي ارتفعت بشكل لم يسبق له مثيل، لم تفلح في جذب الرجال إِلى مشاق العمل في مناجم الذَّهب. أما الأوامر القاضية بعدم تصدير «النَّقد الجيد» أَو المعادن الثمينة فلم يكن حظها من النجاح بأوفر من حظ النُّظم التي كانت تطلب من المستوردين استخدام العائدات التي يحصلون عليها لشراء سلع منتجَة محلياً من أجل تصديرها. إِنَّ تكرار تواتر الأوامر من هذا النوع يوحي بأن فرضها لم يكن سهلاً وبأنَّها كثيراً ما كانت تُقابل بالتجاهل[18].

أما القيود المتعلِّقة بالأجور والأعمال فلم تحقِّق نجاحاً أفضل. فقانون الملك إِدوارد الثالث الخاص بالعمَّال، الذي أقر سنة 1351، حدَّد معدلات الأجور القصوى عند المستويات التي سادت قبل انتشار الوباء، كما طالب كل الرجال القادرين جسدياً بأن يعملوا، وقيَّد إِمكانيَّة تنقل العمال بين الوظائف وحتى أنَّه حدّ من حريتهم في التحرّك بين القرى. وفي نهاية الأمر، أدَّت

المحاولات المتكرِّرة لفرض تلك القيود إلى التمرّد العنيف الذي قاده وات تايلر سنة 1381[19].

وأحد الجهود الهادفة إلى الاقتصاد في الذَّهب، والتي تفوق ما ذُكر غرابة ـ بل وعقماً ـ مجموعة من النُّظم تحمل اسماً غريباً وهو قوانين تنظيم الإنفاق sumptuary laws. والكلمة مشتقة من الكلمة اللاتينيَّة sumptuarius ـ وتعني الأَخْذ أَو الإنفاق ـ وهي ذات جذور مشتركة مع كلمة sumptuous (مترف). كما أنَّها تشترك في جذورها مع كلمة consume (يستهلك)، التي يمكن تحليلها إلى جزأين con وsume. وكلمة «sume» بدورها مشتقة من الكلمة اللاتينيَّة sumere، التي تعني الأَخْذ أَو الإنفاق.

كان الغرض من تلك القوانين هو الاقتصاد في استهلاك الذَّهب الذي أصبح نادراً، وذلك عن طريق منع النَّاس من الإسراف في استخدامه كوسيلة للزينة الشخصيَّة ـ وهو هدف يبعث على الريبة في أعقاب الموت الأَسود. كان ذلك الزمان، كما وصفه توتشمان، هو وقت «المباهج المسعورة والإنفاق الجامع والترف والفسوق»[20].

أما قانون الملك إدوارد الثالث الذي أُقرّ سنة 1363، فقد كان نموذجاً لقوانين تنظيم الإنفاق في القرن الرابع عشر. لقد وضع إدوارد حدوداً قصوى للتبذير المسموح به لكل طبقة. وقد توجب على الريفيين الاقتصار على قماش البطانيات والقماش الخشن المغزول في المنازل ذي اللون البني الضارب إلى الحمرة والمسمَّى russet، ولم يكن ليسمح لساسة الخيول وللخدم بارتداء الذَّهب بأي شكل من الأشكال، أما السادة دون درجة الفارس فقد حُظِّر عليهم ارتداء الأقمشة المذهبة، كما مُنع الفرسان مُن وضع الخواتم الذَّهبية. وفي سنة 1380، ذهب ملك قشتالة إلى أبعد من ذلك بأن منع جميع الإسبانيين، عدا الملكات والأميرات من ارتداء أقمشة مذهبة أَو مجوهرات ذهبية[21].

لقد تم إقرار قوانين تنظيم الإنفاق المرة تلو الأخرى مثلما حدث لقوانين

منع تصدير الذَّهب، وللسبب نفسه دون شك. لكن الذَّهب، كالخمر، يستطيع إِرضاء العديد من الاحتياجات بحيث يمكنه تجاوز قوانين التحريم تلك.

استخدم الأَباطرة البيزنطيون الذَّهب لإِقناع الآخرين بخوض الحرب وبالقتال لمصلحتهم. أما الحروب التي لم تنقطع تقريباً في القرن الرابع عشر، فقد استخدمت الذَّهب لهدف معاكس تماماً: وهو دفع فديات لإِنقاذ الأرواح. وقد استدعت معظم الفديات في القرن الرابع عشر، انتقال الذهب داخل أوروبا، لكن وجود مخاطر الهزيمة العسكريَّة في جميع الدول كانت تعني اضطرار الملوك لتخزين احتياطات ضخمة من الذَّهب كضمان ينفع في اليوم الأَسود الذي يتحتم فيه افتداء الأسرى. وفي تلك البيئة الكريهة للقرن الرابع عشر، كانت الفديات تُعتبر عبئاً مرهقاً بشكل خاص.

هل يجب أن نستنكر الثمن الباهظ لافتداء الأسرى؟... لقد كان ارتفاع الثمن الذي يتوقعه المنتصرون يعزِّز لديهم الدافع للحد من سفك الدماء في ميادين القتال. فلا بدّ إِذاً أن مجال الأعمال المتعلِّق بالفدية ـ التي كانت بشكل أَو بآخر مجالاً للأعمال ـ هو السبب في إِنقاذ العديد من الأرواح، وبخاصة بين الطبقات العليا من المجتمع.

وأَكثر الأمثلة إِثارة عن الأسر والفدية مثال يتعلَّق بملك فرنسا نفسه جان الثاني، الذي عُرف باسم جان الصالح. أحب جان البذخ إِلى درجة الإِفراط، حتى أنَّه جعل رسام القصر يزخرف له المرحاض. وفي خطوة تثير الانتباه في ذلك العصر أصدر أوامره بترجمة الكتاب المقدس إِلى الفرنسية ليتمكَّن من قراءته بمزيد من السهولة. وقد أنفق كثيراً من المال على نفسه، وعلى محاولة قتال الإِنكليز لدرجة أنَّه أصبح خبيراً بتخفيض قيمة العملة: فقد قام بتخفيضها ثماني عشرة مرة في السنة الأولى من عهده وسبعين مرة أخرى خلال السنوات

العشر التالية. وبعد أن اكتشف أحد رجال الكنيسة أن المسائل المالية في عصره أضحت أَكثر إِرباكاً من الموت الأَسود، كتب بضع كلمات خالدة بهذا الشأن:

إِنَّ المال والعملة هما شيئان غريبان.
إِنَّهما يستمرّان في الصعود والهبوط دون أن يدري أحد السبب، وإِذا أردت أن تربح، فإِنَّك تخسر، مهما بذلت من جهد[22].

كان أكبر أبناء جان الصالح، الذي حمل لقب الدوفين (وهو أيضاً دوق نورماندیا) مراوغاً فيما يتعلَّق بولائه لأبيه. وفي نيسان من سنة 1356، أقام حفل عشاء في قلعته في روان لابن عمه وجاره تشارلز الشرير، ملك ناڤار، وهو يأمل في تدبير مؤامرة للاستيلاء على عرش فرنسا. كان تشارلز الشرير رجلاً سيئاً، بحيث أن كل شخص يقارن به، مثل جان، لا بد وأن يوصف «بالصالح». وقام جان، الذي علم مسبقاً بالاجتماع بين تشارلز والدوفين، باقتحام المكان بشكل مفاجيء بكامل عدَّته الملكية المسلحة. وأمر فوراً بذبح بعض أفراد حاشية تشارلز، ثم ألقى به في السجن مصادراً ممتلكاته في نورماندیا.

قام شقيق تشارلز، ومن بقي على قيد الحياة من حاشيته، بطلب المعونة من بريطانيا لاسترجاع الممتلكات. استجاب الإِنكليز دون أي تردد، وسرعان ما كانت قواتهم تنهب الأَرض في طريقها إِلى فرنسا من شيربورغ تحت قيادة دون لانكاستر. وفي شهر تموز، وصل أمير ويلز إِلى بوردو، وهو ولي عهد بريطانيا، الملقَّب بالأمير الأَسود، وكان من أعظم المحاربين والقادة في عصره («الأسود» يشير إِلى لون درعه)، على رأس ثمانية آلاف جندي، ثم بدأ بشنّ سلسلة من الغارات المدمِّرة خلال مسيرته إِلى الشمال عبر المنطقة الغربية من فرنسا. قرَّر جان أن لا خيار أمامه سوى مواجهة أعدائه في معركة كبرى يجري الإِعداد لها جيداً. وبكل ثقة، قاد جيشه المؤلَّف من ستة عشر ألف رجل،

أضخم جيش في ذلك القرن، وسار باتجاه اللوار قاطعاً الطريق على الأمير الأسود أثناء تقدمه باتجاه الشمال[23].

وفي 19 أيلول من سنة 1356، هُزم الجيش الفرنسي أمام قوات الأمير الأسود في معركة بواتييه، رغم تفوقه الاستراتيجي من حيث الموقع، ورغم أن عدد جنوده بلغ ضعف عدد الجنود الإنكليز. بعد سبع ساعات من بدء المعركة، اكتشف الإنكليز المجموعة التي كان جان يقاتل فيها وهاجموها بأقصى سرعة، «كخنزير كورنوول المتوحش»[24]. قاتل جان بكل بسالة وإلى جانبه أحد أبنائه المخلصين، لكنه فقد خوذته وأخذت دماؤه تنزف من جرحين أصابا وجهه. وعندما تعالت الأصوات من حوله تهيب به أن «استسلم، استسلم أو تموت»[25]. قدم جان قفازه لأحد جنود العدو وأصبح ملك فرنسا بذلك أسير حرب.

لم يكن الملك هو الأسير الوحيد ذا المكانة المرموقة في ذلك اليوم. فقد كان معه أيضاً قواد عسكريون فرنسيون من ذوي الرُّتب الأرفع، وما يزيد على ألفي شخص من النبلاء. كان عدد الأسرى يتجاوز قدرة الإنكليز على تدّبر أمرهم. وقد طُلب من معظم السجناء التعهد بشرفهم بالمجيء إلى بوردو حاملين فدياتهم بحلول عيد الميلاد ـ وفي أيام الفروسية، كان طلب كهذا يُعتبر من الأمور العادية. ورغم ذلك، اشتكى كثيرون من الجنود الإنكليز من مهارة رماة جيشهم في التسديد، لأن الأسهم التي انهالت بدقّة كبيرة على القوّات الفرنسية، حرمت المنتصرين من فرصة احتجاز عدد أكبر من الأسرى للحصول على فدياتهم[26].

اصطحب الأمير الأسود ملك فرنسا عائداً إلى بريطانيا بعد سبعة أشهر من المعركة ورتّب له أمر إقامته في قصر سافوي حيث عاش حياة مترفة إلى حين دفع الفدية. ولكن كم بلغت تلك الفدية؟ . . . عندما رفض الفرنسيون تسوية

مبدئية سنة 1358، ردَّ الإنكليز برفع سقف طلباتهم. وفي تلك الأثناء، كان الوقت يمر.

في شهر آذار من سنة 1359، أي قبل ستة أشهر فقط من انتهاء الهدنة التي تمَّ التوصّل إليها في بواتييه، وقّع جان معاهدة لندن. ويبدو يأسه واضحاً من خلال الشروط التي وافق عليها: فمقابل إطلاق سراحه من الأسر، كان عليه التخلي عن كامل المنطقة الغربية من فرنسا من كاليه وحتى جبال البيرنيه، إضافة لدفع فدية تبلغ أربعة ملايين قطعة ذهبية ecus (كراونات ذهبية، أي ما يعادل أكثر من 600,000 باوند إسترليني)، وكان ضمان الفدية أربعين أسيراً من النبلاء والعائلة المالكة. وفي حال قيام الفرنسيين بعرقلة تنفيذ هذه المعاهدة بأية طريقة، كان لإدوارد الحق في إرسال جنوده مرة أخرى إلى فرنسا ـ على نفقة الملك الفرنسي. وكان إدوارد يدرك جيداً ما يقوم به عندما وضع ذلك العبء المالي على كاهل العدو، نظراً للتكلفة الكبيرة للحروب. فخلال سنة واحدة فقط، اضطر لاستدانة مائتي ألف فلورين ذهبي من المصرفيين الإيطاليين الذين تعامل معهم (وكثيراً ما تخلّف عن دفع ديونه المستحقّة لهم)[27].

عندما سمع الدوفين الذي أصبح وصياً على العرش في غياب والده، بمعاهدة الاستسلام الكامل تلك، استدعى مجلس الطبقات لمساعدته في القيام بالاختيار الصعب ما بين السلم وبين تجدّد الحرب. وجاء الرد سريعاً وبالإجماع: المعاهدة لا تُحتمل، ويجب إعلان الحرب على بريطانيا.

شرع الإنكليز فوراً بالقيام بحملة ضخمة في شمال فرنسا، لكن الفرنسيين قاوموا هذه المرة فكرة المعركة المخطّطة، ولجؤوا عوضاً عن ذلك إلى استراتيجيَّة الأرض المحروقة. وفي 13 نيسان، وبينما كان الجيش الإنكليزي الممزّق والمستنزَف القوى معسكِراً قرب تشارترز، ضربته عاصفة بَرَدٍ بالغة العنف، مصحوبة برياح إعصاريَّة، وبزخّات قوية من المطر الشديد البرودة.

وتقول توتشمان: «خلال نصف ساعة، تلقى جيش إدوارد ضربة لا تستطيع أيادٍ بشريَّة تسديدها، ضربة كان من الصعب تفسيرها إلاَّ على أنَّها إنذار إلهي»[28].

ليس هناك سوى قلة من القادة العسكريين ممن لا يلقون بالاً من حين لآخر للرسائل القادمة من مصادر خارقة للطبيعة. عند تلك اللحظة، قرَّر إدوارد الثالث، رغم شدة بأسه في كثير من الأمور، بأن التعقّل هو خير ما في الشجاعة. لكنه على أية حال، كان قد تبقى بحوزته الكثير من إمكانيات المساومة، فقد كان جان ما يزال أسيره. وافق على إعادة فتح باب المفاوضات التي انتهت تماماً في 8 أيار سنة 1360 في قرية اسمها بريتيني. أُنقصت فدية جان لتصبح ثلاثة ملايين كراون ذهبي. كما أُنقصت أيضاً مساحة الأراضي المطلوب التنازل عنها، لكنها ظلَّت تعادل ثلث مساحة فرنسا، وهي غنيمة لم يستطع أحد الحصول على مثلها قبل أن يقوم هتلر بغزو فرنسا بعد 580 سنةً.

كانت المعاهدة واضحة فيما يتعلَّق بالرهائن الأربعين الذين سيتم احتجازهم كضمانة لدفع فدية الملك. وتضمنت الشروط، الابنين الأصغرين للملك، وأخاه، وشقيق زوجة الابن الأكبر للملك وتسعة من كبار حملة لقب كونت. وافق الإنكليز على إعادة جان من لندن إلى كاليه لدى تسديد الدفعة الأولى من الفدية والبالغة ستمائة ألف كراون ذهبي. وعندها يجري إطلاق سراح عشرة من زملائه المساجين من النبلاء، ولكن بعد الاستعاضة عنهم بأربعين شخصاً ثرياً من الطبقة الاجتماعية الثالثة ـ وهي طبقة البورجوازيين، كان إدوارد الثالث يعرف جيداً أين تكمن النقود، شأنه شأن ويلي ستون. أما ما تبقى من فدية جان فتدفع على ست دفعات نصف سنوية تصل إلى أربعمائة ألف كراون ذهبي، ولقاء كل دفعة، يتم إطلاق سراح خُمْس عدد الرهائن.

إنَّ فدية كهذه، كانت ستشكل دون شك، عبئاً يرهق كاهل فرنسا ضمن أية ظروف، لكن هذا العبء كان مرهقاً بشكل خاص بعد أعمال السلب أثناء

فترة الموت الأسود وبعد الدمار والفوضى اللذين أحدثتهما الحرب. وعند نقطة ما، وصلت الأمور إلى درجة بالغة الصعوبة بحيث طلب الفرنسيون من اليهود العودة إلى فرنسا، وكانوا قد طردوهم منها سنة 1306، وعرضوا عليهم الإقامة فيها لمدة عشرين سنة، شرط أن يدفعوا عشرين فلورينياً على الشخص كرسوم دخول وسبعة فلورينات كل سنة بعد ذلك[29]. وقد أسهم جان نفسه بأن قدَّم الدوطة الذَّهبية السخية التي حصل عليها لقاء تزويج ابنته البالغة إحدى عشرة سنة إلى طاغية ميلانو الثري غاليازو فسيكونتي، وهو زواج وصفه المؤرخ ماتيو فيلاني بأنَّه أشبه بقيام الملك «ببيع لحمه في المزاد»[30].

تم تسليم الدفعة الأولى من الفدية في تشرين الأَول سنة 1360. وعندها التقى إدوارد وجان في كاليه وأقسم العاهلان معاً على الحفاظ على السَّلام الدائم بينهما. وأخيراً، عاد ملك فرنسا رجلاً حراً، بعد قضاء أربعة أعوام في الأسر. ولم تكن المناسبة تستوجب الاحتفال. فقد عاد جان إلى بلد أضحت كما وصفها بترارك، الذي كان سفيراً فيها لفيسكونتي، «كومة من الخراب... يملؤها الدَّمار والقفار والبؤس»[31].

لم تنته قصة دفعات فدية جان عند ذلك الحد. فقد أهلك الوباء، الذي كان يعاود الظهور بشكل دوريّ، بعضاً من الرَّهائن الموجودين في بريطانيا. كما حاول البعض الآخر استخدام ثرواتهم الخاصَّة لشراء حريتهم. وسرعان ما بدأ تسديد أقساط الفدية يتأخَّر. كما أن المناطق التي تمّ التخلِّي عنها بدأت بمقاومة تغيير السيادة عليها. وفي سنة 1363، وبعد توصُّل جان إلى القناعة بأن سمعته وشرفه كانا مهدّدين بالخطر، استقل مركباً وقطع القنال الفاصلة بين الدولتين بعد أسبوع من عيد الميلاد وعاد بنفسه إلى الأسر في لندن، دون أن يكترث بنصائح مستشاريه وأساقفته وبنصائح البارونات. استقبله الإنكليز بالحفاوة والتكريم، لكنَّه سرعان ما سقط صريع المرض، ثم توفي في نيسان

من سنة 1364، وعمره لا يتجاوز الخامسة والأربعين. ولا يزال مبلغ مليون كراون ذهبي من فديته لم يتم دفعه بعد.

وفي النهاية، لم يكن قد تم دفع سوى أقل من نصف الفدية، ولكن حتى مبلغ المليون ونصف كراون ذهبي لم يكن بالمبلغ الضئيل. فقد كان يعادل أجور سنة كامل لستة آلاف عامل زراعي تقريباً، ولثمن ثلاثمائة ألف رأس من الأغنام، أَو 1,6 مليون غالوناً من الجعة، أَو أَكثر من أربعة أضعاف مجموع ضريبة الرؤوس التي أثارت تمرداً عنيفاً بعد عشرين سنة[32].

وهناك فدية ذهبية أخرى لا بد من ذكرها، مع أنَّها دُفعت في القرن التالي. كانت هذه قد فرضت في القرن الخامس عشر كنتيجة أخرى لحروب الإنكليز ضد الفرنسيين، الذين كانوا يحتلّون كلا البلدين بشكل متقطع حتى سبعينات القرن الخامس عشر.

وفي سنة 1478، تخلّى الملك إدوارد الرابع، ملك بريطانيا، عن مخطط لغزو فرنسا لقاء إتاوة دفعها الفرنسيون وبلغت 75,000 كراون إضافة لدفعة سنوية تبلغ خمسين ألف كراون. وفي السنة التالية، وافق الفرنسيون أيضاً على افتداء أرملة هنري السادس، مارغريت من مقاطعة أنجو، لقاء مبلغ خمسين ألف كراون، تُدفع على خمس دفعات سنوية. وقد قام كريستوفر تشاليس، في تاريخه الرسمي لدار السَّكّ الإنكليزية، بإجراء حساب ذكر فيه أنَّه لو كان كامل المبلغ قد دُفع فعلياً لحظة وفاة الملك إدوارد الرابع سنة 1483 ـ وتشير الدلائل إلى أن المبلغ قد تم دفعه فعلاً، فإنَّ المجموع كان سيصل إلى 517,000 كروان أَو 103,4000 باوند إسترليني. وهو مبلغ يحتمل المقارنة بكامل إنتاج دار السَّكّ

من العملة الذَّهبية، والبالغ 185,400 باوند إسترليني خلال الفترة الممتدة ما بين 1474 ـ 1482.

لقد كانت الصفقة التي عقدها الإنكليز أفضل مما توحي به الأرقام الصرفة. ففي سنة 1471، وخلال حروب الوردتين، قام قائدان من آل يورك، وهما إدوارد وأخوه ريتشارد دوق غلوسيستر ـ وقد أصبحا فيما بعد الملكان إدوارد الرابع وهنري الثالث على التوالي ـ قاما بأسر الملك هنري السادس وابنه، أمير ويلز ولي العهد، وهما من آل لانكستر، ومن ثم خلْعهما وقتْلهما. وقد جعل هذا الحادث الملكة السابقة مارغريت، من مقاطعة أنجو، تنضم إلى مجموعة العاطلين عن العمل بالإكراه. ولا يسع المرء هنا إلاَّ التساؤل عن السبب الذي حدا بالفرنسيين لأن يعرضوا ذلك المبلغ السخي لإقناع الإنكليز بالتخلي عن مارغريت. فمما لا شك فيه أنَّها كانت عجوزاً نكدة، تتسكع من مكان لآخر لا همّ لها سوى التحسّر والنواح على المصير الرهيب الذي تعرّض له زوجها وابنها على أيدي المنتصرين من آل يورك.

كان حرياً بإدوار وريتشارد أن يأخذا باعتبارهما قيمتها عندما تخلّصا منها بأي ثمن. ففي الفصل الأول، المشهد الثالث من مسرحية شكسبير، ريتشارد الثالث، نرى ريتشارد يصرخ في وجهها «أيتها العجوز الشمطاء الذاوية». وقد لا يكون في ذلك ظلماً لها، لأن مارغريت توبخه ناعتة إياه بألفاظ من نوع «يا مسخ الخنزير المؤذي... يا ابن الجحيم، أيها السلاسة الكريهة التي جاءت من صلب والدك». إلاَّ أننا مع ذلك نعترف بأن شكسبير، ربما كان يسمح لنفسه باختيار الألفاظ لضرورات شعرية. فقد كانت مارغريت مشهورة بجمالها الرائع وبعد عودتها إلى فرنسا، أصيبت بمرض جلدي، وصفه أحد المؤرخين، الأكثر ثقافة من شكسبير، بقوله «لقد ذوى جمالها البديع وغطته الحراشف الجافة. وخلال ليلة وضحاها، تحولت إلى امرأة قبيحة. بقيت عيناها فقط، وقد لحق بهما التلف وصارتا تثيران الرعب»[33]. ورغم ذلك، لا يسعنا إلاَّ التفكير في ما

كان آل يورك سيفعلانه بمارغريت لو أن ملكها لم يعرض بكل سخاء مبلغ خمسين ألف كراون ذهبي لقاء إِعادتها إِلى وطنها، ذلك التصرّف الغريب الذي لا يمكن إِدراك الفائدة التي عاد بها على الملك.

لا شك بأن الأَشخاص الذين نجوا من تلك الأهوال التي لم تنته خلال القرن الرابع عشر، كانوا على قناعة بأن ظلمة ذلك العصر لن تنجلي على الإِطلاق. لكن ذلك القرن الرهيب انتهى أخيراً وبزغ فجر القرن الجديد، وأخذت الظروف في أوروبا بالتحسّن. وهيأ السلام فرصة لإِعادة إِعمار المزارع التي كانت مهجورة، كما أن أَسعار المواد الغذائية المنخفضة أدَّت إِلى ازدياد عدد السكان. وبعد أن لقي ستة ملايين إِنسان حتفه خلال الفترة ما بين 1350 ـ 1400، ازداد عدد سكان أوروبا بمقدار خمسين مليون نسمة ـ أي الثلث تقريباً ـ خلال الخمسين سنة التالية كما ازداد العدد بمقدار تسعة ملايين أخرى في الفترة ما بين 1450 ـ 1500. وسهل تحسّن كميات المواد الغذائية المتوفرة، العودة إِلى الحياة المتمدنة، الأمر الذي سهَّل بدوره، انتعاش التجارة والصناعة[34].

لم يجر التطور بشكل منتظم في كل أرجاء أوروبا. فقد حازت إِيطاليا قصب السبق في هذا المجال من بين الدول الأوروبية الرئيسية، ففي البندقية تجلَّت أعظم أمجاد القرن الخامس عشر، رغم أن فلورنسا أصبحت هي أيضاً مركزاً عظيماً للتجارة والصناعة والمال ـ والفن ـ خلال هذه الفترة. ظلَّت البندقية المحطة الأهم لموجة التجارة الكبيرة مع بلاد الشرق، لكن المدينة لم تكتف فقط بأن تكون مجموعة من الجزر الساحرة على البحر الأدرياتيكي. فبحلول نهاية القرن، أصبحت البندقية تسيطر على معظم المدن ضمن نصف قطر يبلغ مائة ميل تقريباً اعتباراً من ساحة القديس مارك ـ بما في ذلك مراكز

مثل فيرونا وفيسنزا وفيرارا وبولونيا ـ إضافة لجزر البحر الأبيض المتوسط كورفو وقبرص وكريت.

إنَّ قوة من هذا النوع تؤدي لكسب الذَّهب. كانت الأقاليم تحوِّل إلى أهل البندقية مليون دوقية ذهبية كل سنة، وقد أُنفق هذا المال على بناء العديد من القصور التي نراها حالياً على شواطىء القنال الكبير، بما في ذلك قصر كادورو، أو بيت الذَّهب، الذي كانت زخارفه الخارجية فيما مضى مكسوة بسخاء بالذَّهب. وهذا الصرح البديع يعرفه الملايين من السياح المعاصرين، الذين ينفقون مبالغ لا بأس بها هناك لمجرد متعة زيارته.

قد تكون أكثر التطورات ثورية خلال القرن الخامس عشر قد جرت في منطقة كانت حتى ذلك الوقت تلعب دوراً ثانوياً في العصور الوسطى في أوروبا: وهي شبه جزيرة إيبريا. إنَّ زواج فرديناند ملك أراغون من إيزابيلا ملكة قشتالة سنة 1469 أدَّى لتوحيد إسبانيا. وقد تمكن الأسبان أخيراً، تحت قيادتهما، من إخراج العرب، إضافة لليهود في الوقت نفسه، كما نشأ عن زواج فرديناند وإيزابيلا سلالة حاكمة قوية قُدِّر لها أن تمد نفوذ إسبانيا عبر أراضي أوروبا بكاملها، وأن تمدّه بمرور الوقت في الأمريكيتين أيضاً. تزوجت إحدى بناتهما من ملك بريطانيا، أما الابنة الأخرى، جوانا المجنونة، فقد تزوجت الابن الأكبر لإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة. وقد اكتسبت جوانا المسكينة هذا اللقب لأنَّها كانت تجر جثة زوجها في عربة معها أينما ذهبت وذلك لسنوات طويلة بعد وفاته. إنَّ إسهام فرديناند وإيزابيلا والإسبانيين في تاريخ الأمريكيتين لا يحتاج إلى تفصيل.

في هذه الأثناء كانت البرتغال، الدولة الصغيرة، قد بدأت تتحرَّك. لقد كان البرتغاليون طوال تاريخهم بحارة مهرة، فقد أنشأوا أسطولاً تحت إشراف أهل جنوى وأهل البندقية منذ سنة 1300. وكان الملك جون الأول، الذي توج سنة 1385، حاكماً مستنيراً استطاع إيجاد السُبل لتحويل أمة من الدرجة الثالثة لا

يزيد عدد سكَّانها على مليون نسمة (أي سدس عدد سكَّان بلاد المغرب) إلى قوة عالمية[35]. وقد أبرم تحالفاً مع الإنكليز قدّر له أن يستمر ولا يزال ساري المفعول، ثم دعَّمَ الاتفاق بأن تزوج من إحدى حفيدات إدوارد الثالث، التي قام أخوها، هنري بولينغبروك، بعد ذلك بقليل باغتصاب عرش بريطانيا من ريتشارد الثاني[*]. وقد شجَّع جون ابنه الثالث، هنري الملاح، وكان متنسكاً لم يتزوج قط، على البدء بالاكتشافات العظيمة التي جرت في ذلك العصر. وأدَّت تلك الاكتشافات للعثور على الطريق البحري المؤدي إلى الشرق الأقصى مروراً برأس الرجاء الصالح، ولاكتشاف أمريكا، وإلى الاكتشاف المظفر الذي قام به ماجلان بعثوره على الممر البحري الذي يربط المحيط الأطلسي والمحيط الهادي خلال رحلته البحرية حول الأرض. أدار نجاح الاكتشاف رؤوس البرتغاليين حتى أن البلد كاد أن يخلو من سكَّانه الرجال ممن هم في سنّ العمل، الذين لم يستطيعوا مقاومة إغراء اللحاق بغيرهم في تلك الاكتشافات وقد استقر العديد من هؤلاء في البلاد النائية، أو اختفوا مع حطام السفن.

كان الإنتاج الأوروبي من الذَّهب خلال القرن الخامس عشر أقل من المعتاد وذلك بالنسبة لاحتياجات العصر. واستناداً لتقدير مصدر موثوق، فإنَّ

(*) لقد سمحت معاهدة ميثويين (1703) Methuen بدخول الشراب البرتغالي إلى بريطانيا برسوم أقل من رسوم الشراب الفرنسي بمقدار الثلث، كما وافق البرتغاليون على أن يستوردوا من بريطانيا سِلَعاً متنوعة لم يكونوا قادرين على تزويد البرازيل بها. وأبحر الذهب البرازيلي إلى بريطانيا ثمناً لما لم تغطه مبيعات البرتغاليين من الشراب. وكانت العملة الذهبية البرازيلية عملة شائعة في بريطانيا في ذلك الوقت. ويعتقد بعض الباحثين أن هذه المعاهدة حوَّلت البرتغال إلى مستعمرة إنكليزية. (انظر كيند لبيرغر، 1996، ص 71).

الإنتاج المحلي من الذَّهب في أوروبا سنة 1400 لم يكن يتجاوز أربعة أطنان[36]. ومن حيث النَّقد، كان ذلك يكفي لسكّ مليون دوقية تقريباً[37]. وتقول التقديرات أن أهل البندقية وحدهم كانوا يصدِّرون ما يعادل طناً من الذَّهب في السنة بشكل دوقيات خلال القرن الخامس عشر، مما كان يخفِّض إلى حد كبير كمية الذهب المتوفرة[38]. ويورد المؤرخ الاقتصادي تشارلز كيندلبيرغر تقديرات تقول أن نسبة تصل إلى خمسة بالمائة من النَّقد كانت تختفي أيضاً كل سنة نتيجة الاهتراء العادي، والتخزين وتحطم السفن، وتحويل الذَّهب إلى رقائق تُستخدم في أغراض تزيينيَّة[39](*).

وبعد ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة من تطور المدنية، كانت كل كمية الذَّهب في أوروبا في سنة 1500، بكل أشكاله ـ قطع نقدية، ومخزونات وكل أنواع الزخرف والتزيين ـ يمكن تشكيلها في مكعب لا تتجاوز أبعاده المترين. وهذه الكمية المتواضعة كانت تعني أنَّه حتى الاكتشافات الصغيرة أو الكميات الضئيلة الواردة كان لها تأثير كبير على سوق الذَّهب[40].

ويورد المؤرخ الاقتصادي جون داي، في مقالة بعنوان «الندرة الكبرى في السبائك في القرن الخامس عشر»، أمثلة صارخة عن النقص الحاصل في النَّقد الذَّهبي خلال القرن الخامس عشر والجهود العقيمة للسلطات الحكومية للقيام بأي شيء بهذا الخصوص. في سنة 1409، «احتج صرَّافو باريس بصوت واحد على أنَّهم لا يملكون سبائك يقدمونها لدار السَّكّ مهما دُفع لهم من ثمن. وشهدت سنوات الحرب الأهلية (1411 ـ 35) انحداراً سريعاً لنقابة الصياغ في باريس التي كانت تتمتّع بالنفوذ، وذلك للنقص الحاصل في المعدن ولنقص الزبائن، وبسبب القيود الجديدة التي فُرضت على تصنيع التحف الذَّهبية والفضية، وكانت هذه القيود تهدف إلى حماية نقد الملك من الانهيار»[41].

(*) وحتى هذا التقدير قد يكون أقل من الواقع، انظر داي، Day 3، الملاحظة رقم 8.

وصدر قانون في ميناء بروج سنة 1401 يطلب من التجار تسوية كل صفقات القطع الأجنبي بالذَّهب فقط، وقد ألغي القانون بعد ثمانية أَشهر لأن قلة فقط من الناس أعارته اهتماماً[42]. أغلقت دور السَّكّ في مقاطعات الفلاندرز اعتباراً من سنة 1402 وحتى 1410[43]. أما إنتاج دار السَّكّ في برج لندن، الذي كان يساوي 5000 باوند إسترليني تقريباً بالعملات الذَّهبية في ستينات القرن الخامس عشر فقد تدنى إلى 2000 باوند إسترليني خلال الفترة ما بين 1476 ـ 1485، ثم توقف الإنتاج في النهاية خلال السنوات العشر التالية. وسلكت الفضة مساراً ذي اتجاهات مشابهة[44]. ويقدجر داي بأن كامل الاحتياطات من السبائك في أوروبا قد تقلَّص بحدود خمسين بالمائة خلال الفترة 1340 ـ 1460[45].

لقد أدَّت الندرة في كل من الذَّهب والفضة إلى إحياء التعامل بالمقايضة في كثير من المجتمعات، وبخاصة في مجال المدفوعات المحلية. وكان الفلفل، الذي يساوي أكثر من وزنه ذهباً، أكثر السلع المخصَّصة لهذا الغرض شيوعاً، حتى أن الأمراء الألمان كانوا يطلقون على مصرفييهم اسم «رجال الفلفل»[46]. ورغم أن هذا النوع المرتجل من النقود كان يخدم غرضاً ما، إلاَّ أن استمرار استيراد سلع مثل الفلفل لم يكن منتظماً، مما جعل أسعارها متقلبة إلى حد لا يُطاق. فبضعة أكياس من الفلفل يجري تفريغها في أمستردام أَو لندن يمكن لها وبسرعة أن تخفِّض السعر. لكن بضعة أكياس من الذَّهب أَو الفضة لا يمكن لها أن تفعل ذلك. وكانت النتيجة أن بدأ تداول عملات ورقية ـ وهي في الأصل كمبيالات صادرة عن مقترضين من ذوي المكانة، لكن دي يقول بأن المعدن ظل يسيطر على ميدان التداول. «فحتى في إنكلترا في منتصف القرن الثامن عشر، أي عند بدايات الثورة الصناعية، تقول التقديرات أن النَّقد المسكوك كان يمثِّل 90 بالمائة من حجم النَّقد المتداول. . . . وحتى سنة 1861، كان النَّقد المعدني يمثِّل 75 بالمائة من النَّقد المتداول في إيطاليا»[47].

عندما لا تكون هناك وفرة في المال، يميل النَّاس للاقتصاد في نفقاتهم الخاصة بشراء السلع والخدمات. وتكون النتيجة في العادة انخفاض مستوى الأَسعار. وهذا ما حدث بالضبط خلال القرن الخامس عشر. فالتقديرات الموثوقة تشير إِلى أن أَسعار السلع في كل أنحاء غرب أوروبا قد هبطت بنسب تراوحت ما بين عشرين بالمائة إِلى خمسين بالمائة وذلك خلال الفترة ما بين العامين 1400 ـ 1500. ففي أراغون مثلاً، هبط مؤشر الأَسعار بنسبة 20 بالمائة تقريباً[48]. كما هبط سعر القمح الإِنكليزي إِلى النصف بين العامين 1360 ـ 1500، بينما هبط سعر الجاودار في فرانكفورت بمعدل أسرع[49]. وتشير النزعات المماثلة في مناطق الأراضي المنخفضة (هولندا وبلجيكا ولوكسومبورغ الحالية) وفي إِيطاليا، إِلى أن ما حدث كان ظاهرة شاملة في أوروبا القرن الخامس عشر.

وفي الوقت نفسه، كان الطلب على الذَّهب كبيراً بحيث أن سعره أخذ يتحرَّك في الاتجاه المعاكس. ففي بريطانيا، حيث كانت التطورات أنموذجاً للاتجاهات السائدة في كل أنحاء أوروبا، ارتفع سعر الذَّهب ببطء ولكن بدون انقطاع من 23 شلناً للأونصة سنة 1345 إِلى 40 شلناً بحلول سنة 1492[50]. كانت الزيادة الناتجة في القدرة الشرائية للذهب تعني أن حجم السلع التي يمكن لأونصة الذَّهب أن تشتريها قد تضاعف، على أقل تقدير، بين بداية القرن الخامس عشر ونهايته. وكانت النتيجة، أن تلك الفترة كانت إِحدى الفترات القليلة في التاريخ التي أُنفق فيها الذَّهب عوضاً عن أن يُخَزَّن.

لقد كان الذَّهب دائماً يعني مكسباً ثميناً، لكن ذلك الترابط المُغري بين الأَسعار المتدنية للسلع والأَسعار المتزايدة للذهب كان يَعِدُ هؤلاء الذين يستطيعون العثور على مصادر جديدة، بمكافآت مغرية. وعلى خلفية كهذه،

تبدو الاكتشافات الكبيرة في القرن الخامس عشر وكأنَّها كانت الاستجابة الحتمية.

هل كانت حتمية؟.. قد يقول قائل أن قوى الاقتصاد الصرف لم تكن سوى سبب عَرَضي لذلك الولع بالاكتشافات البحرية في العقد الأَول من القرن الخامس عشر. فقد تكون تلك الرحلات الجريئة للوصول إلى أركان الأَرض مجرد تجلٍ آخر لروح عصر النهضة، وهو العصر الجديد الذي اصطدم بالقوالب الفكرية الجامدة التي فرضها الدين في عصور الظلام والعصور الوسطى، كان زمناً شجَّع التجارب الجريئة في مجالات الفن والثقافة والعلم. وإنَّ التقدّم في الملاحة والتوسع في المعارف الجغرافية كانا مجرد نتاج ثانوي لتلك التجديدات المهمّة التي أُدخلت على الرياضيات والقياسات والمنظور في عصر النهضة. لقد كان اكتشاف العالم هو ما يعنيه عصر النهضة. فخلال الفترة ما بين 142 ـ 1500، اتسع العالم الذي يعرفه الأوروبيون ليصبح أَكثر من الضعف، وبعد خمس وعشرين سنة، اتسع لأَكثر من ثلاثة أضعاف[51].

قد يبدو هذا التفسير، للوهلة الأولى، منطقياً، لكن الرأي بأن تلك الاكتشافات الكبيرة لم يكن لها أن تحدث في وقت أبكر يقودنا إلى استنتاجين غريبين مناقضيْن للبداهة. الاستنتاج الأَول، لو أن هذه الزيادة الكبيرة في القوة الشرائية للذهب حدثت في زمن لا يتَّسم بهذا القدر من التجديد، لما ظهر على المسرح أَشخاص مثل هنري الملاح أَو كولومبوس أَو ماجلان ـ مستكشفين لم يستطيعوا مقاومة إغراء المكافآت المجزية غير العادية المتأتية عن البحث عن الذَّهب فيما وراء البحار. ولكن البحارة قد استمروا في السفر عبر المسارات التقليدية كما لو أن شيئاً لم يحدث للذهب في الأسواق. والاستنتاج الثاني هو أنَّه في حال كانت تلك الاكتشافات العظيمة ناتجة فقط عن روح المغامرة التي سادت عصر النهضة، لكانت تلك الرحلات قد حدثت حتى ولو كان سعر

الذَّهب يتدنى وسعر السلع يرتفع، ولا يمكن اعتبار أي من هذين الاحتمالين منطقياً.

لكن الجدل لا ينبغي أن يتوقف عند هذا الحد. فالبحث عن الذَّهب لم يكن هو الدافع الوحيد وراء تلك المغامرات المدهشة. لقد كانت أحلام المجد، أَو ربما ما هو أهم، كان الحماس لتحويل الوثنيين إِلى الدين المسيحي، يشكِّلان جزءاً من ذلك الإِلهام. وعلى أية حال، فمن المؤكد أن أحلام المجد وشعور الحماس لتحويل الوثنيين إِلى مسيحيين، لم يقتصرا على عصر النهضة. فطالما حلم الرجال بالإِنجازات العظيمة، كما أن المسيحيين كانوا دائماً يسعون لإِدخال الآخرين في دينهم.

إِذاً، يبقى الشوق الملتهب للذهب هو المحرِّض الحاسم. والنهم للذهب يظل «ملتهباً» على الدوام، لكنه كان يلتهب بنار ساطعة بشكل خاص في القرن الخامس عشر. لقد استطاع الإِسبانيون والبرتغاليون، وفيما بعد الإِنكليز والهولنديون والفرنسيون تدبّر أمر إِخفاء الفرق بين الرغبة في القيام بصالح الأعمال باسم الله، وبين الرغبة في ملء جيوبهم، وقاموا بذلك بشكل ملائم تماماً. إِنَّ الجهود الهادفة للإِثراء ولاكتساب القوة ولمنح بركات المسيحية إِلى جماهير الرعاع، تُعرض على نحو مميَّز بأسلوب عقلاني متآلف، ولا بدّ وأنَّه كان يشكِّل مصدراً لشعور رائع بالرضى عن النفس.

وقد لخَّص كولومبوس الأمر بشكل جيد، وذلك عندما كتب إِلى فرديناند وإِيزابيلا يخبرهما عن مواجهاته الأولى مع أهل البلاد الأصليين في الأراضي التي اكتشفها:

> وهكذا فإِنَّ جلالتيكما يجب أن تقرّرا جعلهم مسيحيين، لأنني أعتقد أنكما... ستحوِّلان إِلى دينكما عدداً كبيراً من الأَشخاص وستحصلان على السيادة والثروة وكل السكَّان لصالح إِسبانيا. لأَنَّه ما من شك بأن هناك كميات ضخمة من الذَّهب في هذه البلاد[52].